ثقافة الخوف

رئيس التحرير

شاركت في خريف العام الماضي، بأعمال المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (الدورة الخامسة والثلاثون)، وكان لي شرف تمثيل بلدي في اللجنة الثقافية، ولجنة التراث العالمي.. وانعقاد هذا المؤتمر في باريس عاصمة الثقافة العالمية، لمدة تزيد عن ثلاثة أسابيع، يعني أن هناك فرصة جيدة ومناسبة للتعرف عن قرب على معالم باريس وعظمة البناء والعمارة، وعلى أحدث الإصدارات والمنشورات،

ومعارض الفن والآثار والتقنيات الحديثة، وصراعات الفرق الموسيقية، وأمسيات التعارف بين الشعوب والأمم التي تقام على هامش المؤتمر..

«ثقافة الخوف» كانت واضحة في جوانب كثيرة مما شاهدته وتعرفت عليه في معارض ومناسبات وقراءات كثيرة، وهذا ما طرحته بلدية باريس في معرضها الضخم الذي أقامته أمام الساحة الضخمة المؤدية إلى برج «إيفل» وقد حمل المعرض عنوانًا لافتًا «معًا من أجل الحياة» قدمت فيه مسرحيات وعروض فنية وحفلات موسيقية شبابية ومعارض للفن التشكيلي وللصناعات الحرفية وأفردت مساحات واسعة للمطاعم والاستراحات وأجنحة لمنتوجات «الواقي» وطرق الحماية من «الإيدز» والتعامل مع الأمراض المعدية، وكان الأمر الذي يستدعي الوقوف عنده، الخوف الشديد مما هو قادم من مشاكل وأمراض وفوضى اجتماعية واقتصادية وصحية..

في أوروبة أصبحت «ثقافة الخوف» منتشرة ومتأصلة في كل جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.. الخوف من «العولمة» وجوانبها المختلفة ومخاطرها القوية والمؤثرة على «الثقافة الفرانكوفونية» والثقافة الأوروبية بشكل عام، وعلى مصير لغاتها وعاداتها وقيمها الاجتماعية والثقافية، في عصر تتحول فيه الثقافة بسرعة شديدة لا قدرة للدول الأوروبية على مجاراتها- مهما فعلت.. إنها.. «ثقافة الخوف» التي أصبحت واقعًا، لا مناص منه عند إعطاء «فيزا» لأي زائر أو راغب بالسياحة أو الاطلاع، أو حتى العلاج، فالأمر قد يحتاج إلى أشهر من الانتظار والمراجعة وحتى «الواسطة» وفي كثير من الأحيان يأتي الجواب بالرفض دون تقديم الأسباب المبررة لذلك، وهذه ظاهرة جديدة لم تكن موجودة منذ سنوات قليلة في قاموس الدبلوماسية الأوروبية..

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، ومع نمو الإسلام في أوروبة، تصاعدت وتيرة ظاهرة أطلق عليها اسم «إسلاموفوبيا» التي تعني خوفًا دائمًا وشاذًا أو كرهًا شديدًا لشيء ما، استنادًا لما ورد في قاموس «أوكسفورد» للغة الإنكليزية، وهذا

يعني باختصار «الخوف من الإسلام». فمن يتابع ما ينشر من دراسات وأبحاث ومقالات تنشر وتروّج بشكل لافت، يجد أن للإسلام أعداءه في أوروبة بشكل عام، وأن هناك حملات إعلامية مركزة ومدروسة بدقة وعناية ضد الإسلام والمسلمين، وشعار هذه الحملات: «الإسلام دين عنف وتخلّف» و«أن المجتمع المتعدد الثقافات محكوم عليه بالفشل» و«الإسلام يقف ضد حرية التعبير» علاوة على وصف المسلمين بـ «الإرهابيين» وهذه التهمة دائمًا جاهزة ضد الإسلام عند أي حادثة مهما كانت صغيرة أو بسيطة، ويقومون بتجريد الثقافة الإسلامية من إحدى أنبل خصائصها وهي: طبيعتها الإنسانية وقدرتها على التعامل مع الثقافات الأخرى، وينسون أن لهذه الثقافة التي يصفونها بالإرهاب، تاريخًا طويلاً وغنياً في الأخذ والعطاء مع ثقافات الأمم الأخرى، وكان هذا هو ما أعطى الثقافة مركزها العلمي ووجهها الإنساني الشامل..

لقد جعل النظام العالمي الجديد من «ثقافة الخوف» تهديدًا حقيقيًا لمستقبل الشعوب والأمم، حيث يسيطر على هذه الثقافة تغيب الوعي بالذات وبالآخر، وغياب البعد الأخلاقي في التعامل مع إنسانية الإنسان، والانطواء على الذات والانعزال عن العالم والهرب إلى التاريخ، وبكل أسف، من يدقق فيما يحصل يجد أن «ثقافة الخوف» هي جزء مهم من قواعد اللعبة الدولية في مضمار «العولمة» وهي ليست محصورة فينا، ولا مقصورة علينا..